دراسة جمالية في شعر الشريف الرضي

الدكتورة سميحة غنام*

الملخص

يتناول البحث دراسة النماذج الفنية الجمالية في شعر الشريف الرضي، محاولاً أن يبين وظيفة هذا الشعر في حياة صاحبه، وأثره في الحياة الفكرية والأدبية العربية والإسلامية. يعرض في البداية لمحة عن حياة الشاعر وسيرته، ويتوقف عند عصر الشاعر لما له من أهمية في حياة الرضي وغيره من الشعراء مشيراً إلى الجوانب السياسية والاجتماعية والفكرية التي تؤثر في الإنسان والمجتمع ، ثم يبين علاقة الفن بحياة صاحبه، وقد صنفها المفكر الفرنسي شارل لالو في خمسة أنواع دعاها بالعقد النفسية الفنية ، فيوضح البحث تلك العقد من خلال الشعر العربي، ينتقل بعدها إلى دراسة العقد الفنية في شعر الشريف الرضي، فيدرس عقدة الاقتصاد، ويركز على حربيات الشاعر التي تعد تحقيقاً لرغبات لم ينجزها الشاعر بل اكتفى بعرضها وتصويرها، وعقدة الذاتية التي تكشف عن تأثر الشاعر بمظاهر الجمال الأنثوي في مواسم الحج، وتعبيره عنها في طائفة كبيرة من أشعاره تدعى بالحجازيات، ثم يشير إلى عقدة الهروب من الواقع التي صرح بها حيناً، وألمح إليها أحياناً.

* قسم اللغة العربية – كلية الآداب– جامعة دمشق

مقدمة:

يقول الشريف الرضي:

وليــسَ من الفــراغِ يُثَــرنَ عنــي نُفَاثــاتٌ يجيــــُش بهــا الجَنَــانُ

ولـــــكنْ مهجــةٌ مُلِئــت ففاضــتْ وضــاقَ القلــبُ واتــسعَ اللــسانُ[1]

وهذا يدل على أن بعض الناس في زمن الشاعر قد انتقدوه بأن أشــعاره الكثيرة ناشئة عن الفراغ الذي كان يعيش فيه، فأراد أن يرد عليهم، ويقول لهم فــي هذين البيتين: إنه ذو موهبة شعرية قل أن توهب لغيره، وإن ما يجول في نفــسه من خواطر ومشاعر يضيق بها قلبه، فيجد في لسانه المطواع البليغ متــسعاً لينفــث بها، ويعرب عنها أي إعراب.

ونحن نريد في بحثنا هذا أن نتقرى بعض تلك المشاعر والخواطر التي كانت تجيش في صدر الشاعر وتغدو "نفاثات" شعرية، وأن نتبين تشعبها ووظيفتها في حياة شاعر عربي كبير قيل فيه ((إنه أشعر قبيلة قريش)). وكانت له مكانــة عاليــة فــي المجتمع الإسلامي طوال عهد من عهود الخلافة العباسية بصفته نقيــب الطــالبيين وأمير الحج والمظالم وعالماً من علماء الدولة ومؤلف عدة كتب من أهمها وأشــهرها كتاب (نهج البلاغة) الذي جمعه من أقوال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وكان له أثر عميق وطيب في الحياة الفكرية والأدبية العربية والإسلامية.

إن بين المعارف والعلوم وشائج واضحة وخفية وصلات ظاهرة وباطنــة تصل بعضها ببعض، وتعين بعضها على تفهم ما يجري من شؤون في بعضها الآخر، مثال ذلك أن دراسة فلسفة الفنون ومذاهب علم الجمال تتيح فهماً أعمق لفنون أصحاب الفنون، ولشعر طائفة كبيرة من الشعراء، ولكثير من إبــداعهم وإنتــاجهم الفنــي أو الشعري بوجه خاص، وإيضاحاً لوظيفة الفن أو الشعر فــي حيــاة أولئــك الــشعراء والفنانين، لذلك نعمد بادئ بدء إلى عرض لمحة عن حياة شاعرنا الــشريف الرضــي

[1] – الشريف الرضي الديوان487/2 وفي الديوان يَثُرن.

وسيرته وعصره، ثم نلخص آراء المفكر الفرنسي الحديث شارل لالو الذي شغل كرسي علم الجمال وفلسفة الفن سنين طويلة في جامعة السوربون بباريس حول علاقة الفن بحياة صاحبه في كتبه المتعددة، وقد لخص تلك الآراء الدكتور عبد الكريم اليافي في مقالة واسعة على صفحات مجلة التراث العربي (العدد 31) بعنوان " الوجه الآخر للفنان أو العلاقة بين الأثر الفني وحياة الفنان ". وقد صنف المفكر الفرنسي تلك العلاقة في خمسة أنواع دعاها بالعقد النفسية الفنية. ونحن سنطبق تلك العقد على شعر الشريف تطبيقاً مناسباً يوضح وظيفة هذا الشعر الجميل البليغ الجزل في حياة صاحبه ذلك العلم البارز في التراث العربي والإسلامي، وفي الختام نلخص البحث ونبرز رأينا في عموم هذا الشعر ومكانته بين دواوين الشعراء العرب عامة.

سيرة الشاعر وعصره:

في التاسعة والخمسين وثلاثمئة للهجرة ولد الشريف الرضي الذي ينتسب إلى سلسلة من الأشراف تعود بوليدها إلى الذروة في كرم المحتد وشرف الأرومة ونبل الأصل إلى الشريف الأعظم علي بن أبي طالب رضي الله عنه والزهراء ابنة أكرم البشر وأعلاهم شأناً نبي الإسلام ورسول الحق والخير والعدالة صلى الله عليه وسلم يقول:

إني لَمن معشرٍ إن جُمّعوا لِعُلى تَفَرقوا عن نبيٍّ أو وَصِيّ نَبي [1]

في بيت تشع منه أنوار العلم والأدب والفقه، وتحوطه أقانيم الإيمان والشرف والمجد نما ذلك الوليد وكبر.. بين ذراعي أب من أعيان القرن منزلة ودراية ومعرفة شبّ.. في حضن أم عمرَ قلبها الإيمان، وغذا عقلها العلم ترعرع، فكانت خير أم تحمل الرسالة، أرضعت ابنها لبان العلم والمعرفة، ودفعته في دروب العز والفخار ليكمل سيره في الطريق التي سلكها أهلها وأهل زوجها من قبل، وليثمر الغصن الجديد رطباً جنياً وثمراً شهياً. " أبوه ذو المنقبتين أو المناقب نقابة الطالبيين

[1] –الشريف الرضي – الديوان 1 / 112.

وإمارة الحج والنظر في المظالم، فنقابة الطالبيين تجعل جميع أمور الطالبيين وأحكامهم إليه، والنظر في المظالم يشبه منزلة المدعي العام اليوم لكنه أوسع منها [2]، يقول الرضي:

حمى الحجَّ واحتلَّ المظالمَ رتبةً على أنّ ريعانَ النقابةِ زائد[3]

وكان أبوه من جلالة الشأن وعلو المكان في عصره بحيث كان سفير الخلفاء والملوك والأمراء في الأمور المهمة، وكان ميمون النقيبة مبارك الطلعة ، ما سفر في أمر إلا وكلل بالنجاح، وفي ذلك يقول الشريف الرضي:

وهذا أبي الأدنى الذي تعرفونه مُقدَّمُ مجدٍ أولٌ ومُخلَّف

مُؤلِّف ما بين الملوك إذا هفَوْا وأشفَوْا على حَزّ الرقابِ وأشرفوا [4]

وأمه فاطمة بنت الناصر الصغير كانت تقية صالحة على قدر من العلم والمعرفة، كفلت ولديها الرضي والمرتضى حين زج أبوهما في السجن وعمر الرضي زهاء عشر سنين، وعهدت بتربيتهما وتثقيفهما إلى شيخ الإمامية وعالمها الجليل الشيخ المفيد، وقد فخر الشاعر بهذه الأم وأشار إلى مكانتها في نفسه قائلاً:

لو كان مثلك كلُّ أم بَرةٍ غَنِي البنون بها عن الآباء

وحين وافتها المنية والشاعر مازال يخطر في رداء الشباب رثاها بشعر ينفطر له القلب ألماً، وتمنى لو اختاره الدهر لها فداء، قال:

قد كنتُ آمل أن أكونَ لك الفِدا مما ألمَ فكنت أنتِ فدائي[5]

وقد ورث الشريف الرضي المجد والعلى عن هذين الأبوين الجليلين العلويين الطالبيين ولذلك تراه دائماً يفخر بنسبه الشريف، ويعتز بمجد أجداده قائلاً:

لنا الدوحةُ العليا التي نزعتْ لها إلى المجد أغصانُ الجدود الأطايبُ

---

[2]– العاملي – أعيان الشيعة 9 / 216.
[3] – الشريف الرضي الديوان 1 / 309.
[4] – العاملي– أعيان الشيعة 9 / 216.
[5] – الشريف الرضي الديوان 1 / 26–30 .

إذا كـــانَ في جو السماء عروقُهـــا فأينَ أعـــاليها وأين الـــــذوائب [6]

وكان أخوه الشريف المرتضى شاعراً مكثراً وأديباً معروفاً.لـــه ديـــوان كبيـــر ومؤلفات كثيرة تشهد بعلو مكانته، كان علماً من أعلام الفقه واللغة والشعر، فقد ابتعـــد عن حلبة الصراع الـــسياسي واختـــار طريـــق العلـــم والأدب تحـــصيلاً وتأليفـــاً وتعليماً،ولكنه على الرغم من ذلك لم يكن بعيداً عن السياسة،فقد شارك أخاه في أعمال النقابة والمظالم والحج نيابة عن أبيه أو مساعدة لأخيه،ثم قام بأمورها بعد وفاة أخيـــه الرضي[7]، ذاعت أخبار علمه وتقواه بين الناس، ولقبه بهاء الدولـــة البـــويهي بـــذي المجدين، وخلع عليه وبالغ في إكرامه[8] ، وقد قال المعري في رثائـــه لأبـــي أحمـــد الموسوي:

ساوى الرضي المرتضى وتقاســـما خطط العلا بتناصـــف وتـــصافِ [9]

في يوم أكدر فتح الشريف الفتى عينيه على مشهد خلف الفجيعة فـــي نفـــسه ومر الألم في قلبه، ففي مجلس المطهر بن عبد الله وزير عضد الدولة قبض علـــى أبيه[10]، وحمل إلى فارس أسيراً لا لذنب اقترفه لكن لأوهام زينها الأعـــداء لعـــضد الدولة، ولاقت قبولاً في نفسه لأن أبا أحمد الموسوي من ذوي الشأن فـــي العاصـــمة العباسية، وممن يخشاهم على سلطته، فأحس الرضي بأنه فقد مثله الأعلى وأن أهـــم أعمدة البيت الموسوي مال، وأن بركان الألم يتفجر على لسانه ينبوع شعر وهـــو مـــا يزال ابن العاشرة من العمر،واستمر هذا النهر من الفن الجميل طوال حياتـــه، فكـــان وثيقة مهمة أرخَ الشاعر فيها أحداث عصره عامة، وأحداث أسرته وحياته خاصة، فقد عاش في عصر أركانه الصراع والفوضى والجوع من جانب والغنى والتقدم العجيب

---

[6] – نفسه 1 / 145.
[7] – ابن الجوزي –المنتظم 7 / 276 .
[8] – ابن الجوزي –المنتظم 7 / 234.
[9] – أبو العلاء المعري– شروح ديوان سقط الزند /1297.
[10] – الشريف الرضي الديوان 1 / 305.

في المعارف والفن والصنائع من جانب آخر .

أدى الصراع بين أفراد البيت العباسي من جهة والقادة الأتراك من جهة ثانية، و بين الخليفة والوزير وقائد الجيوش من جهة ثالثة إلى تدمير البلاد، فعمت البلاد حالة من الفوضى والاضطراب، وصودرت أموال الناس ، وازدادت الضرائب بغية زيادة أرزاق الجنود من الأتراك، فاستغل الفرس الذين أبعدوا من قبل عن الساحة السياسية هذه الحال وأسسوا دولتهم في بلاد فارس والري وهمذان، وحين استنجد قواد بغداد بأحمد بن بويه دخل بغداد منتصراً. فقابله الخليفة المستكفي وخلع عليه ولقبه معز الدولة، فأشرق نجم البويهيين الذين حكموا البلاد ما يزيد على قرن من الزمن تمكنوا خلاله من القضاء على النفوذ التركي، وسلبوا الخليفة البقية الباقية من سلطانه حتى لم يبقَ له إلا الاسم وبقية مال لا تكفي لعيش كريم في بعض الأحيان، وتنفيذ الأوامر الواردة من السلاطين والأمراء.

عاش الرضي في عصر النفوذ البويهي ، وعاصر ثلاثة من خلفاء بني العباس وهم المطيع لله الذي أصيب بمرض الفالج، وما إن انكشف حاله لسبكتكين حتى دعاه إلى أن يخلع نفسه من الخلافة ويسلمها إلى ولده الطائع لله [11]، ولما قلت الأموال عند الأمير بهاء الدولة وكثر شغب الجند قبض على وزيره سابور فلم يغن عنه ذلك شيئاً، فحسن له وزيره القبض على الطائع، وأطمعه في ماله، وهون عليه ذلك[12]، فقبض عليه بخديعة مزرية، وأخذ مافي داره من الذخائر، وسلبت ثياب أكثر القضاة والأشراف وامتهنوا، أما الشريف الرضي الذي شهد هذه الحادثة فقد بادر إلى الخروج وسلم ، وقال:

من بعدِ ما كان ربُّ الملك مبتسماً إليَّ أدنوهُ في النجوى ويُدْ نيني
أمسيت أرحم من أصبحت أغبِطُه لقد تقاربَ بين العز والهُون

[11] – ابن الأثير – الكامل في التاريخ 7 / 53 .
[12] – نفسه 7 / 148 .

لا تـأمنّ عـدواً لان جـانبُـه خشـونـةُ الصِّل عُقبى ذلك اللـين[13]

في هذا اليوم حين قبض على الطائع اختلط الناس وظن أكثرهم أن القبض على بهاء الدولة، ونهبت دار الخلافة، وماج الناس إلى أن نودي بخلافة القادر، وكتب على الطائع كتاب بخلع نفسه، وأقيمت الخطبة للقادر في الجمعة التالية[14].

وفي هذا العصر ظهر الصراع بين البويهيين و الفئات الأخرى للسيطرة على مقاليد الحكم الفعلية وتسيير دفة البلاد كل حسب مصالحه، وقد عاصر الشاعر الصراع الذي دار بين بختيار وسبكتكين حيث لجأ كل منهما إلى الحيلة والخديعة للإيقاع بصاحبه والتخلص منه، ولم يكن أي منهما يرعى حرمة للآخر أو لعامة الناس الذين كانوا يزجون في أتون الصراع، ويفقدون المال والولد، فلم يتوان سبكتكين عن الإساءة إلى والدة بختيار وإخوته، كما أن بختيار سلك جميع الطرق للحصول على الأموال والتخلص من منافسيه[15]. وقد تجاوز الصراع الفئات المتناحرة على السلطة إلى الصراع بين السلاطين أو الأمراء في الأسرة نفسها، فقد استحكم العداء بين عضد الدولة وابن عمه بختيار[16]،كما نشب الصراع بينه وبين أخيه فخر الدولة فقصده وأخذ بلاده [17]، وأمر صمصام الدولة بقتل من بفارس من الأتراك [18]، وبقتل اثنين من أولاد بختيار وحبس الباقين [19]، وما لبث أبو النصر بن بختيار أن قتل صمصام الدولة وقال: هذه سنة سنها أبوك [20]. وقد تجاوزت الحرب ساحة بغداد إلى البصرة والأهواز وطبرستان والموصل وحلب ودمشق.. ولم يعد غريباً في ذلك العصر أن يستعين أحدهم بأعدائه ليتخلص من أخيه أو ابن عمه، ويستولي على موقعه في السلطه كما فعل الحمدانيون والبويهيون والأتراك.

---

(13) – الشريف الرضي الديوان 2 / 446 .
(14) – ابن الأثير – الكامل 7 / 51.
(15) – نفسه – الكامل 7 / 81.
(16) – نفسه – الكامل 7 / 101.
(17) – نفسه – الكامل 7 / 170.
(18) – نفسه – الكامل 7 / 159.
(19) – نفسه – الكامل 7 / 193.

والغدر الذي يستنكره الشاعر وأمثاله بات سمة خلقية لكثير من معاصريه يقول:

وتغـــدُرُ بـــي الأقـــاربُ والأدانـــي فـــلا عجـــب إذا غـــدر الـــصحابُ

ولا عجب أن يستنكر الشاعر مقامه في بغداد بين هؤلاء الناس:

فما لي والـــــمقام علـــى رجـــالٍ دعت بهمُ المطامع فاســـتجابوا [21]

هذا غيض من فيض، فكتب التاريخ تغص بأخبار الحروب والصراعات التي دارت رحاها في حياة الشاعر، وكأن الأرض تحولت إلى مسرح تعرض على خشبته مسرحية للصراع الذي يقدم ألوان القتل والدمار.

قاد هذا اللون من الصراع السياسي بين العباسيين والأتـــراك والـــديلم إلـــى صراع مذهبي بين السنة والشيعة تجاوز أحياناً حدود الجدال المذهبي بين الفريقين إلى حروب وفتن داخليه خلفت الدمار في البلاد، وجرت الويلات إلى الـــسكان الأبريـــاء. فحين وقعت الفتنة بين بختيار وسبكتكين ثارت العامة مـــن أهـــل الـــسنة ينـــصرون سبكتكين، فخلع عليهم فثاروا بالشيعة وحاربوهم وسفكت بينهم الدماء، وأحرقت الكرخ في بغداد،[22] وقد رافق هذا اللون من الصراع فتن كثيرة داخل بغـــداد وخارجهـــا، وظهر العيارون الذين أوقعوا الويلات ببغداد وسكانها، واستفحل أمرهم حتـــى غلبـــوا على الأمور وأخذوا الخفارة عن الأسواق والدواب [23]، أضف إلى ذلـــك حـــوادث النهب وشغب الجند لأجل النقد وتأخر العطاء[1].أما غلاء الأسعار فقد أخـــرج النـــاس إلى الموصل والشام وخراسان[24]. وقد ارتفع ثمن القمح كثيراً فمات خلق كثير جوعاً وعظم الخطب[25]. وهكذا عمت الفوضى وفقد الأمن، ولم يعد الإنسان يحس بالراحـــة أو الأمان ، وإذ يستنكر الشاعر هذه الأحوال يحمل الحكام مسؤولية مايجري قائلاً:

---

[20] – الشريف الرضي الديوان 1/ 125.
[21] – ابن الأثير – الكامل 7 / 53 .
[22] – ابن تغري بردي– النجوم الزاهرة 4 / 108.
[23] – ابن الأثير – الكامل 7 / 161.
[24] – نفسه 7 /63.
[25]– ابن تغري بردي– النجوم الزاهرة 4 / 144.

خطوبٌ لا يـــــقاومها البـــقاءُ وأحوالٌ يـــدِبّ لهـا الـــــضرّاء
ودهـرٌ لا يصح بـــه ســـقيمٌ وكـيـــفَ يـصـــحّ والأيـــامُ داءُ
وأمـــــلاكٌ يـــروْن القتـــلَ غُنمـــاً وفي الأموال لو قنـــعوا فـــداءُ [26]

وليس غريباً أن يستشري داء الفقر في مثل هذه الظروف، وأن يعاني الناس الذل والسغب، وأن يتغلغل هذا المرض في الأحياء والدور حتى يبلغ القـصور، وقـد عانى الرضي ضيق ذات اليد حين قبض على والده وصودرت أملاكه وهو ما يـزال صغيراً، كما عانى منه وهو كبيرٌ في أواخر حياته، قال:

آه مـــن داءيـــن عُـــــدمٍ ومـــشيبْ رب ســقمٍ لا يُـداوى بطبيـــبْ [27]

وقد عرف الشاعر موضع العلة وشخص أسبابها قائلاً:

الظلمُ والإنصافُ مـــن فعـــلِ مَـــنْ يحكمُ في الحاضـــرِ والبـــادي [28]

وما دام حكام الدولة وسوء فعالهم أصل الداء في رأي الرضي فلا بد من تحديد العلاج وتقرير الدواء اللازم، وهذا ماكان في حربياته التي عاشت في حيز الأحـــلام، أحلام اليقظة، وما تجاوزتها إلى حيز الفعل على الأرض.

في عصر التناقضات هذا يشتد عجب المرء حين يـرى الحيـاة الـسياسية والاجتماعية تتدرج نحو التدهور والانحدار والحياة الفكرية والعلمية تتصاعد باتجـاه الرقي والازدهار، ولعلنا نصيب كبد الحقيقة حين نقول: بلغـت الحـضارة الفكريـة العربية أوجها في القرن الرابع ومطلع الخامس الهجريين، فـالزروع التـي غرسـت وآتت أكلها أطيب الثمرات استمرت نحو قرنين من الزمان، وكانت حركـة الترجمـة والتأليف ما تزال نشيطة، وكانت حركة الشعر والنثر ما تزال متألقة تلقى التشجيع من أصحاب المال والسلطة حتى غـدت بغـداد فـي عهـد البـويهيين قبلـة الـشعراء

(26) – الشريف الرضي الديوان 1 / 36 .
(27) – نفسه 1 / 205 .
(28) – نفسه 1 / 296 .

والأدباء،واشتد التنافس بين العاصمة بغداد وعواصم الدويلات المستقلة في النشاط الثقافي والتألق الفكري، كما اشتد التنافس بين الحكام في إكرام العلماء والأدباء، كل منهم يريد أن يستقطب هذه الفئة أو تلك ليفاخر أمراء الأقطار الأخرى في ثروته العلمية والأدبية، وكان الأمراء والسادة أعمدة البنيان الثقافي إذ حضروا مجالسه ، وشاركوا في مناظراته ، وأغدقوا الهبات على العلماء والأدباء الذين أحاطوا بهم في بلاطاتهم ومجالسهم، فتحولت حلب الحمدانية ومصر الفاطمية وبخارى السامانية وبغداد البويهية إلى مراكز للإشعاع الفكري والحضاري، وإلى مكتبات عامرة بالمؤلفات في شتى الفنون والعلوم والآداب، وقد حولها الخلاف المذهبي والحزبي وانتشار التصوف والفلسفة إلى أسواق رائجة للبحوث والمجادلات، أسهم كل ذلك في رفد النهضة الفكرية وخاصة في ميادين الشعر والأدب، وقد نبغ الكثيرون ممن يقفون شواهد على رقي العصر وحضارته الفكرية ، وبلغ الأدب في عصر الرضي درجة عالية من الرقي لأن باب التنافس الذي فتح على مصراعيه بين عواصم الدويلات أسهم في النهضة الأدبية التي شهدها هذا العصر، وإن أمراء بني بويه لم يكتفوا بمنافسة الحمدانيين والفاطميين وغيرهم بل كانوا أدباء يتذوقون الأدب، ويحضرون مجالسه ، ويشجعون رجاله، وقد أجاد بعضهم نظم الشعر وبرع آخرون في كتابة النثر، ذكر الثعالبي في يتيمة الدهر أن عضد الدولة" كان يتفرغ للأدب ويتشاغل بالكتب، ويؤثر مجالسة الأدباء على منادمة الأمراء "[29]. وقد قصده المتنبي وأقام عنده ضيفاً كريماً، ومن أشهر مدائحه فيه:

مغاني الشعب طيباً في المغاني بمنزلة الربيع من الزمانِ [30]

ولم يكن الأدب في ذلك العصر وليد التشجيع أو احتضان السلطة له فحسب، بل كان الفقر كثيراً مايدفع أصحابه إلى متابعة التحصيل والدراسة كي يبرعوا في

---

(29) – 2 / 195.
(30) – نفسه 2 / 195.

ميادينه، ويكون وسيلتهم في كسب العيش وارتقاء المناصب، وحمل الظلم كثيراً من عظماء الرجال وذوي العقول الراجحة أن يفروا من العمل السياسي إلى العمل العلمي لأنهم يجدون أن العمل السياسي يعرضهم لمصادرة أموالهم، وأحياناً إلى إزهاق أرواحهم، على حين أن العمل العلمي يحيطهم بجو خاص هادئ،ويبدو أن الخلفاء جعلوا للعلماء حرمة،ولم يتعرضوا لهم طالما لم يتعرض هؤلاء للسياسة مما أدى إلى قيامهم بأبحاثهم العلمية في هدوء وطمأنينة[31]. ومن أشهر الشعراء والأدباء في هذا العصر المتنبي والرضي والمرتضى والمعري وأبو فراس الحمداني وابن العميد والصاحب بن عباد ومهيار الديلمي، وقد كان الرضي وأخوه على صلة وثيقة بأهل الفكر والأدب، وقد شاركا في النهضة الفكرية ، وأسس كل منهما داراً للعلم ببغداد، ويشير شعر الرضي إلى مجالس الفكر التي كان يحضرها مع أصحابه، ولعلنا نجد فيه صورة عن ثراء الحياة الفكرية وألوان النشاط الثقافي في عصره، وهذا ماجسده في شعره الذي جاء لوحة ناطقة بما يجول في خفايا نفسه وزوايا مجتمعه، وقبل المضي مع الرضي في جماليات شعره يجدر بنا التوقف مع النماذج الجمالية التي يستند إليها البحث في رصد الظواهر لدراستها .

العلاقة بين الفنان وفنه:

" درس المفكر الفرنسي شارل لالو الذي كان أستاذاً لمادة علم الجمال في السوربون بباريس هذه العلاقة دراسة مستفيضة في كتبه، فبعضها يحمل عنوان " الفن بعيداً من الحياة" وبعضها يحمل عنوان " الفن قريباً من الحياة"، وهو يحصر وجوه الاحتمال هذه في خمسة ضروب من العلاقات يدعوها بالعقد النفسية الفنية إذ هو متأثر ببحوث التحليل النفساني، وهي عقدة الهروب وعقدة الصناعة وعقدة الاقتصاد وعقدة التداوي بالمثل وعقدة الذاتية"[32]. ويرى الدكتور عبد الكريم اليافي أن

---

[31] – احمد أمين – ظهر الإسلام 1 / 96 .

[32] – الوجه الآخر للفنان ص 11 .

لفظ العقد لا يتضمن خفضاً ولا تقريظاً ولا إشارة إلى مرض نفسي أو غيره ، وإنما هو عبارة تقصد إلى التصنيف لأن صاحبها تأثر ببحوث فرويد كما تأثر بمدرسة دركايم الاجتماعية التي تدرس الظواهر من الخارج دراسة موضوعية،كما يجيز لنا أن نقول في مكان العقد نموذجات" وهذا لفظ أحدث لأنه يقابل في الوقت الحاضر ما يدعى في علم الاجتماع "موديلات" [33] .

وإذا بحثنا في دواوين الشعر العربي وأخبار الشعراء وجدنا الكثير من الأمثلة على ما سماه المفكر الفرنسي العقد النفسية الفنية، وقد أورد الدكتور عبد الكريم اليافي أمثلة كثيرة من الأدبين العربي والعالمي في مقالته عن الوجه الآخر للفنان، سأشير إلى بعض هذه النماذج ، ثم أنتقل إلى الرضي لأبين ما في شعره منها.

كان الشعر في رأي بعض الشعراء والنقاد صناعة تخضع لقواعد دقيقة صارمة في دقتها بحيث لا ينحرف عنها صناع الشعر إلا ليضيفوا إليها قواعد أخرى ما تزال تنمو مع نمو الشعر وتتطور مع تطوره [34].

ويبدو أن هذه الصناعة تحمل الأديب والشاعر والفنان أياً كان على توخي الإجادة مترسماً مراعاة الأحوال واقتضاء الصروف واتجاه الأرزاق دون الاهتمام بالواقع أو التقيد بالصدق[35]. وكان الحطيئة يعنى بشعره وتجويده عناية شديدة،وقد أثر عنه أنه كان يقول:" خير الشعر الحولي المحكك"، وقد اتخذه حرفة تكفل له ما تكفل الحرف لأصحابها من ضرورات العيش، فراح يتكسب به، وفي ضوء هذا التكسب فهم وظيفة الشعر.

ولعل هذه الصناعة المتقنة كانت تحظى بإعجاب الناس جميعاً، وتمهد السبل أمام الشاعر لتحقيق غاياته، يروي الجاحظ في كتابه (البيان) أن عمر بن الخطاب رضي

---

[33] – نفسه ص 11.
[34] – شوقي ضيف– الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 14 .
[35] – د. اليافي – الوجه الآخر للفنان ص 11

الله عنه كان يقول: خير صناعات العرب أبيات يقدمها الرجل بين يدي حاجته [36]، وقد عرف الحطيئة الطريق إلى قلب هذا الخليفة العظيم، وترك شعره فيه أعظم الأثر فعفا عنا وأخرجه من سجنه، ولئن بالغ ابن قتيبة في نعته بالبخل فإن الحطيئة غسل ثوب البخل بمدح الكرم، وقد استطاع ببراعته في شعره أن يصرف النظر عن صفاته الخلقية والخُلقية إلى الإعجاب بشعره وإبداعه، ولعل قصيدته الميمية تأتي في طليعة ما أبدع الشعراء في وصف الكرم العربي.

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما [37]

ج

وقد بالغ الرواة أيضاً في اتهامه بفساد الدين،ولكننا نراه يحسن وصف التقى والعمل الصالح إذ يقول:

ولست أرى السعادة جمع مال ولكن التقي هو السعيد

وتقوى الله خير الزاد ذخراً وعند الله للأتقى مزيد [38]

ويعجب النقاد بأبياته في وصف السعادة والتقى، ويحسب بعضهم أن الشاعر الذي كان فاسد الدين في البداية حسن إسلامه في النهاية ، فيقول أبو عمرو بن العلاء: لم تقل العرب قط أصدق من بيت الحطيئة:

من يفعل الخير لايعدم جوازيه لايذهب العرف بين الله والناس [39]

ونلمح فيما يدعوه (لالو) نموذج الاقتصاد تبايناً بين الشعر والواقع، وتبدو لنا" فجوة أخرى بين الفنان وفنه إذ يكتفي الفنان بأن يصور في فنه أموراً وأحوالاً وأفعالاً لم يعملها ولا زاولها، ليس هروباً من الواقع، وإنما هو تحقيق في الفن لرغبات لم ينجزها الفنان بل اكتفى بتصويرها وعرضها، وكأن الفنان اقتصد فاقتصر على القول

---

[36] – 2/ 101 .
[37] – الحطيئة الديوان ص 396 .
[38] – الأصفهاني – الأغاني 175/2.
[39] – نفسه 2 / 173.

أو الوصف دون الفعل "[40]، فأبو العتاهية كان بخيلاً على نفسه وغيره مع يساره وكثرة أمواله وما كان ليصمت إذا رأى بخيلاً بل يهاجمه وينعى عليه حرصه وقلة إنفاقه، ويحفل ديوانه بالزهد والحث على التحرر من رق المال مع أنه مستعبد له عاجز عن تحرير نفسه، وقد يلجأ الشاعر إلى أجواء خيالية يحلق فيها متناسياً واقعه هارباً من كدره محاولاً أن يحقق فيها ماعجز عن تحقيقه على أرض الواقع، فابن الرومي الذي ذاق مرارة الفقر، وعرف بؤس الحياة بكل ألوانه صور متع الحياة ومباهجها وألوان الجمال فيها، وقد دفعه حرمانه من طيباتها إلى تصوير المآكل الشهية والموائد العامرة التي كانت حلماً جميلاً يمتعه، ويذيقه كل ماحرمه من أطايبها بالوهم، فالهروب من الواقع إلى عالم خيالي يحقق له أمنياته ويسكن تباريحه وإن كان لايشفيه.

إن ماسلف ذكره من نماذج يجعل الأثر الفني بعيداً من حياة الفنان، أما النموذجان الباقيان وهما التداوي بالمثل والذاتية فيصوران حياة الفنان أو يقربان منها. وهنا نستشف الوجه الحقيقي للفنان سافراً أو من وراء التحليل النفساني[41]، ولعل أول مايتبادر إلى ذهن الباحث إذا درس نموذج التدواي بالمثل مقولة أبي نواس:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالتي كانت هي الداء [42]

على أن هذا النموذج سرعان مايذكرنا بقصص الشعراء من أمثال الأعشى وديك الجن وشعراء الحب العذري وغيرهم ، فديك الجن الذي قتل حبيبته أحس أنه أنهى حياته بيده ، بقي شهراً بلا طعام أو شراب إلا مايسد رمقه، وكأنه كان يسعى إلى قتل نفسه مادياً بعد أن قتلها معنوياً، وهو إذ لايفارق الحياة يستمر في تعذيب نفسه وقتلها، فيصنع من ذرات الجسد المطعون كوزاً [43]ومن دمائه خمراً، ويغيب عن

[40] – د. اليافي– الوجه الآخر للفنان ص 17.
[41] – د. اليافي الوجه الآخر للفنان ص 22.
[42] – ابن الرومي – الديوان –ص 7 .
[43] – العاملي الكشكول ص 98.

الوعي كلما رشف دماء الخمر القانية من ذرات الجسد الذي يستعذب أن تلهب شفتيه بذكرى الألم والفجيعة، فيقتل نفسه كل ليلة انتقاماً منها وتشفياً، وإذا كان أبو نواس يستقي الدم من جوف الدن المجروح، وتصبح الخطيئة الضرورية الممجدة عنده ضرورة كيانيه لأنها رمز الحرية، رمز التمرد والخلاص فإن هذه الخطيئة تنقلب عند ديك الجن إلى جريمة ممجدة. وضرورية كتوكيد أعلى ومطلق للحرية والشرف[44].

ونلمح مظاهر النموذج الأخير عند نفر من الشعراء، فعمر بن أبي ربيعة القرشي المدلل والثري الجميل هو أمل الجميلات النبيلات وغاية العاشقات الحسناوات والمحور الذي يدور حوله شعر الحب العمري، فقد تبدلت الأدوار بين المرأة والرجل في هذا اللون من الغزل، فعمر هو المعشوق المزهو، والمرأة هي العاشقة المولهة، يملؤه التيه بنفسه فيتحول قمراً يضيء قلوب النساء، ويشغل بال الأخوات : يقول:

قالت الكبرى أتعرفن الفتى قالت الوسطى : نعم هذا عمر
قالت الصغرى وقد تيَّمتُها قد عرفناه وهل يخفى القمر[45]

ويبلغ عشق الذات ذروته في حياة المتنبي وشعره، فإذا مدح توحد بالممدوح أو نسيه في غمار حب الذات الذي يتعانق فيه الخيال والواقع،ويتحد فيه الشعور واللاشعور وإن كان الممدوح مثله الأعلى سيف الدولة الحمداني لأن المتنبي لم يكن كغيره من الشعراء داعية لغيره بعيداً عن الفعل رغم تغنيه به، بل كان داعية لنفسه، فهو حين يمدح لا يمدح ممدوحه فحسب بل يتحدث عن ذاته في الوقت نفسه، وفي هذا التوحد يرى مثله الأعلى لاجتماع الأمير والفارس والشاعر في شخص واحد، ففي قصيدته اللامية يمدح سيف الدولة قائلاً:

---

(44) – أدونيس– مقدمة للشعر العربي ص 53.
(45) – شوقي ضيف – العصر الإسلامي ص 352

فدتك ملــوك لــم تُــسَمّ مواضــياً فإنــك ماضـــي الــشفرتين صـــقيلُ
إذا كان بعض الناس ســيفاً لدولــةٍ ففي النــاس بوقــاتٌ لهــا وطبــول

وفجأة ينتقل إلى ذاته فيقول:

أنا السابق الهادي إلى مـــا أقولــه إذا القــولُ قبــل القــائلين مقــولُ

ثم يعود إلى سيف الدولة مرة أخرى قائلاً:

فتيــهاً وفخراً تغلــب ابنــة وائــل فأنت لخيــر الفــاخرين قبيــل[46]

ولذلك قال أدونيس: المتنبي يفرز نفسه ويعرضها عالماً فسيحاً مــن اليقــين والثقة والتعالي في وجه الآخرين وضدهم، وهو في ثنايا شعره كله يحتضن ذاتــه ويناجيها، ويحاورها بنبرة من العبادة[47].

وإذا كنا قد أشرنا إلى هذه النماذج عند بعض الشعراء فإن هذا لا يعني أن يختص كل شاعر بواحد منها أو يتوزع شعره بينها كلها، إن هذه النماذج الخمس قد تكــون مشتبكة في شعر الفنان وقد تكون منفردة، أو يكون بعضها موجوداً دون بعض، فما الذي نجده في شعر الشريف الرضي؟.

النماذج الجمالية في شعر الشريف الرضي:

نموذج الاقتصاد:

أي أن يكتفي الفنان أو الشاعر في فنه أو شعره بأن يصور أموراً وأفعالاً لم يعملها ولا زاولها. ليس ذلك هرباً من الواقع ، وإنما هو تحقيق لرغبات لم ينجزها الشاعر بل اكتفى بتصويرها وعرضها، وكأن هذا العرض والتصوير ينوب عن العمل والجهد في بلوغ المآرب المرجوة والمقاصد المتخيلة، الفن هنا يفتقد الجهد، وكذلك القول والشعر يحل محل العمل والتعب.

كان الشريف الرضي يطمح إلى سدة الخلافة بل يرى نفسه أحق بها من غيــره

(46) – محمد زكي العشماوي– موقف الشعر من الفن والحياة ص255
(47) – ادونيس – مقدمة للشعر العربي ص 55.

من الخلفاء بالنظر إلى نسبه وعلمه وبلاغته، ففي هذه الأمور مزايا تخوله إياها، ولكن الظروف التاريخية والصروف الاجتماعية والعسكرية تحول دون بلوغه إليها، ودون أن يطوق بها على خلاف الخلفاء العباسيين. وبدلاً من التنديد بالاضطراب المتفشي في الدولة العباسية والفساد المنتشر في البلاد نراه لا يعمد إلى المناداة بالإصلاح أو العدالة الاجتماعية إلا قليلاً، ولا يبدأ بالدعوة إلى تغيير الواقع أو الثورة عليه، بل يكتفي بأن يحمل الحكام مسؤولية ما يجري، وأن يشن غارات شعرية بليغة في شعره، ويتوهم فيها بلوغ النجاح [48]، يقول:

كبَا الدهرُ بيني وبين المنى وطال بزنْدِ الرجاء اقتِداحي

آمال الشاعر وطموحاته كثيرة ، ولكن الدهر لا يسعفه في تحقيقها، فهو يشكو من تباطؤ الدهر في تحقيق آماله، وإنه ليدفعه إلى اليأس من الوصول إلى سدة الخلافة مع أنه لا يرى أحداً يساميه في الفخر ويطاوله، فهو حفيد النبي والأئمة الأخيار الذين رفعوا لواء الحق، وأبلوا في سبيله، وقدموا أرواحهم لنصره الإسلام وتحقيق العدالة:

فمَنْ ذا أُسامي، وجدي النبيُّ أمْ مَنْ أطاول أم من ألاحي
أنا ابنُ الأئمةِ والنازلين كُلّ منيعِ الربى والبَراح
وأيدٍ تصافحُ أيدي الكرامِ وإن نفرَتْ من أكفّ الشّحاح
إذا استُصْرخوا عصفوا بالصَّباَ حِ بينَ الظُّبىَ والوجوهِ الصِّباح
وسالوا الى الطعن سيلَ القَنا ومالوا على الضَّرب ميلَ الصِّفاح
نشرْنا على عَذَّباتِ الريا ح كُل لواءٍ صقيلِ النواحي
وأحسابُنا ساميَاتُ الأنوفِ بين المقام وبين الضُّراح [49]

لاغرو أنه يفخر بحسبه في مواضع عدة من ديوانه، ويعلن عن إحساسه بالتفوق على معاصريه، وعن حقه بالخلافة، ولكن العجب يبدو من ثورته التي لا

[48] – د. اليافي –الوجه الآخر للفنان – ص 21 وقد درس اليافي هذه العقدة من خلال النص نفسه.
[49] – الشريف الرضي الديوان 1 / 248 – 250 الضراح: البيت المعمور في السماء الرابعة.

تتجاوز حدود الكلام، فهو يرغب في تحقيق أمانيه، ويحاول إدراك مرامه، فيقارع الفساد على توالي الأيام والأعوام، ولكن ذلك كله يحصل في أحلامه إذ لا نجد منه شيئاً يتحقق على صعيد الواقع:

نبهتُهم مثلَ عَوالي الرماحْ إلى الوغى قبلَ نُمُوم الصَّباحْ
فوارس نالوا المنى بالقنا وصافَحوا أعراضَهُم بالصِّفاح
لغارةٍ سامعُ أنبائها يغَصُّ منها بالزلال القَرَاح
ليس على مُضْرمها سُبّة ولا على المُجْلبِ منها جُنَاح

ويصف معترك الحرب ويغري بالغنم فيها، ويستنهض همم أتباعه كي يثوروا رافضين الذل ساعين إلى المجد:

دونكمُ فابتدروا غُنْمها دُمىً مباحاتٌ ومالٌ مُباحْ
فإننا في أرض أعدائنا لا نطَأُ العذراءَ إلا سِفاحْ

ثم يشير إلى همومه التي تثير همته، فإن الهم والهمة في اللغة من جذر واحد يعني الحركة والانتقال والقصد، ولا بد في ذلك من تلقي الأذى دون بلوغ المنى:

يانفسُ من همّ إلى همّةٍ فليسَ من عبءِ الأذى مستراح
قد آن للقلب الذي كده طول مناجاة المنى أن يراح
لابد أن أركبها صعبةً وقاحةً تحت غلام وقاح

ثم يرى في هذه الثورة كأن الأرض قد زلزلت، والناس قد فاجأهم الطعن الصراح في أوائل الصباح، ويتمنى أن يرى سيول الدماء المتدفقة فوق بغداد تفوق سيول البطاح غزارة وانهماراً:

متى أرى الأرضَ وقد زُلْزلت بعارضٍ أغبرَ دامي النّواحْ
متى أرى الناسَ وقد صُبّحوا أوائلَ اليوم بطعنٍ صُراح
يلتفتُ الهاربُ في عِطفِه مُرَوعاً يرقبُ وقعَ الجِراح

متى أرى البـيضَ وقـد أمطـرت سـيلَ دمٍ يغلـبُ سـيلَ البطـاح

وربما كان يتذكر قول المتنبي في إشارته البليغة إلى غفلة الحكـام العباسـيين ولهوهم وتقاعسهم عن الإصلاح، وعن أطماع الطامعين مشيداً بسيف الدولة الذي كان يقاوم البيزنطيين ويردهم عن الثغور الإسلامية، فيعمد الشريف إلى التنديد بهم وترقب مصارعهم وتصدع شملهم في تلك الثورة الخيالية:

متى أرى البَيْـضةَ مـصـدُوعةً عن كلّ نَشوانَ طويـلِ المِـرَاحْ
مضمّخ الجيدِ نؤومِ الضُّـحى كأنّـهُ العـذراءُ ذاتُ الوشـاح
إذا رداحُ الـروعِ عنّـتْ لـه فَرّ إلى ضَـمِّ الكعـابِ الـرداح
قومٌ رَضُـوا بـالعجزِ واستـبدلوا بالسيف يَـدْمى غَرْبُـه كـاسَ راح
توارثُـوا الملك ولـو أ نجـبوا لورّثُـوه عـن طعـانِ الرمـاح
غَـطّى رداءُ العـزّ عوراتِـهم فافتُـضِحوا بالـذُل أيّ افتـضاح
فارمِ بعينـيك ملياً تـرى وقع غباري في عيـون الطِّـلاح
وارْقَ عـلى ظَلْعـك هيهاتَ أن يُزَعزع الطـودُ بمـرّ الريـاحْ
لاهَمّ قلبـي بـركوبِ العُـلى يومـاً ولا بَـلّ يـديّ الـسَّمَاحْ
إن لـم انلْـها باشتـراطٍ كمـا شئتُ على بـيضِ الظُّبى واقتـراح
أفـوز منهـا باللـبابِ الـذي يُغني الأمـاني نَيْلـه والـصُّراح
وخطـةٍ يـضـحك منهـا الـردى عسراء تَبْري القومَ بَـرْيَ القِـداح
صبرتُ نفـسي عنـد أهوالِهـا وقلـتُ: مـن هبوتِهـا لابَـراح
إما فتـى نـال العلـى فاشـتفى أو بطلٌ ذاقَ الردى فاسـتراح[50]

إنها لوحة كاملة للثورة التي تقود الشاعر إلى تحقيق النصر وبلوغ الأمـاني، ثورة يعيشها الشاعر بكل أحاسيسه ومشاعره، ويرسم تفاصيلها فيوهم سامعه أنها ثورة

[50] – الشريف الرضي – الديوان 1 / 452–456. وردت في الديوان : مباحاتٍ، سَفاح.

حقيقية سلك الشاعر فيها درب أجداده، وماهي إلا ثورة خيالية جسدها في لوحة فنية متكاملة جميلة.

إذا أطلت بذكر هذه الأبيات من تلك القصيدة الطويلة فلكي أتابع خلجات نفس الشاعر في هذا الخيال الحربي المعمعاني دون أن يتجاوز اللفظ المختار إلى أوار الواقع الذي يكاد يشرف على التداعي والانهيار، إنها ثورة بقيت في إطار الأمنيات، ولم يقرن الشاعر قوله بفعله ولعله آثر السلامة ووجد في تاريخ أجداده عظة، فاكتفى بثورته الخيالية لكن بيانة الشعري الذي يجسد تلك الثورة بلغ في هذا النص قمة الإبداع والروعة، ولو أنه انتقل إلى حيز الثورة الفعلية لكان له من شعره خير معين في إثارة الجماهير ودفعها إلى أتون المعركة. ويقول في قصيدة أخرى ليست أقل وعيداً وتهديداً من القصيدة الآنفة:

ماضرّنا أننا بلا جِدة ... والبيتُ والركنُ والمقامُ لنا
وهمةٌ في العلاءِ لازمةٌ ... تُلزم صُمَّ الرماح أيدينا
نأخذُ من جُمةِ العُلى أبداً ... ما أخذَ الضَّرْب من جماجمنا
سوفَ ترى أن نَيْلَ آخرِنا ... من العُلى فوقَ نيلِ أولِنا
وأنّ مابُزّ من مقادمِنا ... يُخلِفُه اللهُ في عقائلِنا
ذلكَ وِرْد قَذىً لسابقِنا ... والآن يُجلى القذى للاحقنا
لأوقرنَّ الركابَ سائرةً ... عزماً يكدُّ الأبدانَ والبُدُنا
حتى تهاوى من اللُّغوب وتـ ... ـتنجِدُ بعدَ المناسمِ الثَّفنا
لأبلغُ العز أو يقالُ فتى ... جَنَت عليه يَدُ الردى وجنى [51]

يؤكد الشاعر حقه في الخلافة، وإصراره على بلوغها أو يموت دونها، ولكن أين ثورته في الواقع ؟ وقد ملأت هذه الأماني نفس الشاعر في سن مبكرة:

[51]– نفسه 2 / 531 البدن: الواحدة بدنة هي كالأضحية من الغنم .

ســـــتعلمونَ مـــــايكونُ منـــــي إن مَدّ مِنْ ضـــبعَيَّ طـــولُ ســـني

ودفعه طموحه الكبير إلى الخروج من إهاب جلده الغض ليعلن ثورته، وينـــذر مجتمعه، ويتوعده بما تخبئه له الأيام:

جُننت بأساً والشـــــــجاعُ جِنّي
أثارَ طعنَ الـــدهرِ في مِجَني
يشـــهدُ لي أنّ الزمـــانَ قِرني
ســـــــوف ترى غبارها كالدجن
قســـاطلاً مثل غَوادي المـــزن
تجري بضربٍ صادقٍ وطعـــنِ [52]

واستمر الشاعر في معاركه الخياليه حتى أواخر حياته، ولكنه خرج عن خـــط أجداده وآثر الحياة على الشهادة، والتنفيس عن ثورته الداخليه بالشعر، واعتلاء ســـدة الخلافة بالخيال، ولعل الحكام كانوا يعرفون ذلك حق المعرفة، يعرفون أنه لن يتجاوز الثورة الخيالية ولن يخوض معركة حقيقية ولذلك غفروا له، وقلدوه مناصب تخفف من غضبه وثورته، فالطموح السياسي الذي وجدناه بركاناً متفجراً في شبابه لم يهدأ فـــي شيخوخته، فما عجز الشباب عن فعله هل تستطيع الشيخوخة تحقيقه ؟ يـــصوره فـــي قصيدة جميلة يقول فيها:

ولولا الجَوى لم أبـــغِ إلا مُدامـــةً بطعـــنِ القَنـــا إبريقُهـــا الوَدَجـــان
إذا سكرَ العـــسّالُ مـــن قَطَراتِهـــا ســـقيتُ حُمَيّاهـــا أغَـــرَ يمـــاني
ولي أمـــلٌ لابـــدّ أحمـــلُ عبـــئه على الجُرد مـــن خيفانـــةٍ وحِـــصان
وكـــل رعـــود الـــشفرتينِ كأنّـــه سَنَى االبرْقِ إمّا جدّ فـــي اللمعـــان
فإن أنا لم أركبْ عظيماً فلا مَـــضَى حُسامي ولا روى الطّعان سناني [53]

[52] – نفسه 2 / 533 المجن: الترس

تشغل هذه الغارات بال الشاعر على الدوام، ولذلك تجده ماينفك يحتفظ بسيفه حتى ليلة الوصال، يحتفظ به في كل الأحوال، ويجعله الأقرب إلى جسده لأنه رمز لما يشغل باله، ولذلك ترى هذا الأبيض الماضي يبعد البيضاء الحسناء عن صاحبه كلما اقتربت منه :

تضاجعني الحسناءُ والسيفُ دونها ضجيعانِ لي والسيفُ أدناهما مني
إذا دنَتِ البيضاءُ مني لحاجةٍ أبى الأبيضُ الماضي فأبعَدها عنّي
وإن نامَ لي في الجفنِ إنسانُ ناظرٍ تيقظَ عني ناظرٌ ليَ في الجفن
أغررتُ فتاةَ الحي مما ألفتُه أغلغلُه دونَ الشّعارِ من الضنَ
وقالتْ: هبوهُ ليلةَ الخوفِ ضمَّهُ فَمَا عُذْرُه في ضمِّه ليلةَ الأمنِ [54]

لئن كان السيف الماضي يبعد الحسناء في النص السابق فإن اللقاء في نص آخر يتلاقى فيه القتال والعناق، فالخد ميدان، وخيول اللثم تجول فيه وتصول:

ربَّ بدرٍ بتُّ ألثمُه صاحياً والبدرُ نشوانُ
قدْتُ خيلَ اللثمِ أصرفُها حيثُ ذاك الخدُّ ميدانُ [55]

تلك معاتبة شاعر يقفو أثر شاعر سبقه، فقد قال امرؤ القيس في قصيدة غزلية:

أيقتلني والمشرفيُّ مُضَاجِعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوال [56]

ويقول عنترة: وسيفي كالعقيقة وهو كمعي[57]، أي ضجيعي الذي يلازمني. فالشريف الرضي يأخذ الفكرة ويوسعها كما يوسع الموسيقار فكرة موسيقية سبقه إليها أحد قبله، يوسعها في متنوعات على اللحن.

---

(53) – الشريف الرضي – الديوان 2 / 523 الودجان، الواحد ودج: عرق في العنق ينتفخ عن الغضب –خيفانة : الجرادة ، شبهت بها الفرس لخفتها.
(54) – نفسه 2 / 484.
(55) – نفسه 2 / 505.
(56) – الديوان ص33. الغول في لسان العرب : الحية .
(57) – الديوان ص76. العقيقة: شعاع البرق ومنه قيل للسيف: كالعقيقة، والكمع والكميع: الضجيع وتمامه: سلاحي لاأفلّ ولا فطارا ، وأراد به الملازم.

يكاد في الواقع يشعر بوحدته في طلب العلى ونيل مايرومه، فهو يسمع بخبر نجاح الموفق بالله أبي علي وزير بهاء الدولة حين تغلب على الخارجين على الحكم في فارس، ووطد دعائم الدولة حتى لقب عمدة الملك، فهو يهنئه بظفره، ولكنه في آخر قصيدته يستعطفه ويستعينه في الوصول إلى مأربه، فيقول مستشفعاً:

فِرشْني أكنْ لكَ سهمَ النضال واغصبْ عليّ يديْ مَنْ بَراني
وحُكْ لي بُرْدَ العُلى ضافياً أحُكْ لك أمثالَه من لساني
إذا كنتَ عَوني فمن ذا الذي يُثَبّطُني عن بُلوغِ الأماني
وأنت الزمان وأنى يخيـ بُ من كان مستشفعاً بالزمان[58]

إنه شاعر لايد له بالثورة والعراك، ولكن اللطف والمواساة والإكرام والإجلال من قبل الخليفة تكفيه حتى يعلن عن أحقية العباسيين بالخلافة، لقد أكرمه الخليفة الطائع لله في سنة 380 هـ وقلده النقابة، ورتبه في رتبة أبيه، وخلع عليه خلعاً سنية، وتناهى في إكرامه، فقال يمدحه وكأنه نال مراده لهذا الإجلال والتكريم، وجاء في قصيدته:

ملكاً بني العباسِ، فالرّا جي مقامكمُ غَبينُ
أنتُم لها إن هابَ خُطّتها جبانٌ أو ظَنينُ

ثم يخاطب الخليفة فيقول:

لك ذروة البيتِ المعـ ظم والأباطحُ والحَجُونُ
أتُرى أمينَ الله إلـ لا مَنْ لهُ البلدُ الأمينُ
والأمرُ أمرُك لا فمٌ يُوحي ولا قولٌ يُبينُ[59]

هدأت نفس الشاعر في هذا النص وتخلت عن ثورتها العارمة التي نطقت بها

---

[58] – الشريف الرضي الديوان 2 / 495

[59] – نفسه 525/2–526 . الأباطح : أي بطاح مكة ، الحجون : جبل بمعلاة مكة . أمين وردت في الديوان ــ أمينُ

نصوصه السابقة، وكانها حققت المراد في بلوغ المنى، وما هذه المنى إلا تقليد النقابة وإكرام الخليفة للشاعر وتواتر إحسانه عليه.

نموذج الذاتية:

يبدو هذا النموذج خاصة لدى الشاعر القرشي المشهور عمر بن أبي ربيعة الذي كان يتحدث في شعره عن مغامراته الغزلية، وعن تتبعه للجمال الأنثوي وهيامه بـــه، وولوع الغواني الحسان بشعره، وولوعه بلقائهن ولا سيما في موسم الحج لعله يلقـــى من يحب لقاءها من الحسان أو يلقى وجهاً صبيحاً أو مقلة حوراء فاتنة من اللواتي لم يحججن يبغين أداء الفريضة أو مثوبة من الله، ولكنهن خرجن ليعرضن عن قصد أو غير قصد بهاءهن الساحر ويقتلن البريء المغفل قال:

قامـــت تـــراءى بالـــصِّفاحِ كأنمـــا عمـــداً تريـــد لنـــا بـــذاك ضـــرارا
كالشمس تُعجب مـــن رأى ويزينهـــا حسبٌ أغر إذا تريدُ فخـــارا [60]

هنا نحن مع الشريف الرضي الذي يرجع نسبه الـــشريف المـــزدوج إلـــى الحجاز أي إلى ربوع ذويه وأجداده مواطن المجد والفخر والسؤدد، ولقد كانت مواسم الحج في العصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية متألقة زاهية رائعة. كانت مواسم أعياد أو على الأصح عشيات أعياد فيها زينات وأفراح ومباهج مع التقى والاحتشام كل الاحتشام، ومع ذلك في إبان القيام بالفريضة وأداء المناسك كانت تلـــوح ملامـــح جمال ومفاتن حسن تأخذ بالألباب، وتسكر القلوب من حسان فاتنات رائعـــات تفـــوق فتنتهن رقة الظباء السانحات في تلك الربوع المباركة.هنا مجال الشعر واسع، وهـــو ألصق بالواقع، فإذا كان الشاعر بليغاً، وتجول في صدره مشاعر الحب والـــصبابة، وهو أمير في عمله الرسمي وفي مرافقته موكب الحجاج، ويطـــوف فـــي الأمـــاكن الحجازية المشهورة البديعة والمقدسة فلا بد من أن تفيض تلك المشاعر ويتـــسع لهـــا لسانه العبقري، وهذه هي مزية طائفة كبيرة من أشعار الشريف المدعوة بالحجازيـــات

[60] – عمر بن أبي ربيعة الديوان 1 / 117

وبالملحقات بالحجازيات، تتصف كلها على خلاف لغات الغارات الخيالية التي عرضنا بعضها آنفاً، تتصف بالعذوبة والرقة والسهولة والحنين والحب حتى إنها تمثل ذروة في هذه الصفات بين أمثالها في تاريخ الشعر العربي وتراثه الحافل المجيد. ولا بد من الاستئناس ببعض القطع التي تحفل بلاغة وعذوبة وبهجة ورقة ورشاقة ورهافة في الشعور وفي البيان، فهو يتغنى أجمل غناء بمشاعره، ويتفنن في عرض الصور الجمالية في تلك الربوع الزاهية التي كثيراً مايذكر أسماءها حباً لها، وتذكراً لإلمامه بها، وتلميحاً بما لاح من محاسن إنسانية لاتنسى لنستمع إلى مطلع هذه القصيدة وجزء من أبياتها:

أسلْ بدمعِك وادي الحيّ إن بانوا إن الدموعَ على الأحزان أعوانُ
لاعُذرَ بعد تنائي الدار من سكنٍ لمُدّعي الوجد لم يدمع له شان
حي الطوالع من نجد تصونهم عن النواظر أنماط وكيران
رموا جيوب المطالي عن ميامنهم وشيحة الحزن يسراهم ونجران
سارت بقلبك في الأحشاء زفرته واستوقفتك بأعلى الرمل أظعان
لما مررنا على تلك السروبِ ضحىً نضَتْ إلى الربعِ أجيادٌ وأعيان
من كل غيداءَ قد مال النعيمُ بها كما تخايلَ بالبُردينِ نشوانُ
كأنما انفرجَتْ عنهمْ قبابهمُ يومَ الأنيعمِ آجالٌ وصيران
مستشرفاتٌ يُعرضْن الخدودَ لنا كما تشوّفَ صوبَ المزن غزلانُ
لايُذكر الرملُ إلا حنّ مغتربٌ له بذي الرمل أوطارٌ وأوطان [61]

[61] – الشريف الرضي الديوان 2 / 448 –449 الشان : مجرى الدمع – الأنماط ج نمط : ثوب يطرح على الهودج – الكيران ج كور : الرحل – الجيوب ج. جيب : مداخل الأرض – المطالي ج مطلى أو مطلاء : مسيل ضيق من الأرض – الشيحة : ماءة شرقي فيد بحلب– نجران : اسم لعدة مواضع – السروب ج سرب : الطرق – نضت : سبقت – الأنيعم : موضع – الآجال ج إجل : القطيع من بقر الوحش – الصيران ج صوار : القطيع من البقر .

ولقد يتاح له أن يمر على ديار أحبابه وكانوا قد نزحوا منها، ولكنه يتذكر أيامه معهم فيها، فيصور كيف يتوقف فيها ملياً، ثم إذا أزف موعد السير يتلفت نحوها بعينيه طوال إبصاره لها حتى إذا غابت عن ناظريه تلفت قلبه نحوها:

ولقد مررتُ على ديارهمُ وطُلولُها بيد البلى نهبُ
فوقفتُ حتى ضَجّ من لَغَبٍ نِضْوي ولَجّ بِعذليَ الركبُ
وتلفتَتْ عيني فمُذْ خفيَتْ عنها الطلولُ تلفَّتَ القلبُ [62]

إنه تلفت تزيد براعته البلاغية على كلام كثير من الشعراء الذين وقفوا في الطلول وساءلوها وحدثوها وتذكروا أحبابهم فيها.وقد يلقى ركباً آيباً من الجنوب فيسائلهم عن أحبابه هنالك بالأبرقين يستاف بعض أخبارهم ويتذكر حبه الدائم لهم على القرب وعلى البعد، كما يتذكر قلة الوصال التي مازال قلبه يذوب لتذكارها، كما يتذكر قصر اللقاء خوف الرقيب:

ألا أيُّها الركبُ اليمانون عهدُكم على ما أرى بالأبرقينِ قريبُ
وإن غزالاً جُزتُمُ بكناسِهِ على النأيِ عندي والمطالِ حبيبُ
ولما التقينا دلّ قلبي على الجَوى دليلان: حسنٌ في العيونِ وطيبُ
وهل ينفعنّي اليومَ دعوى براءةٍ لقلبي ولَحْظي يا أميمَ مريبُ
وأنهلني في القعبِ فَضْلُ غَبُوقِهِ خليطان: ريقٌ باردٌ وضريبُ
ولو نفضتْ تلك الثنيّاتُ بَرْدَها على الصّبرِ الممرورِ كاد يطيبُ
فيا بردَ ماءٍ ذاب ماذيقَ بردُهُ بَلى إنّ لي قلباً عليه يذوبُ [63]

ويتفنن في الغزل، وغالباً يقع له إحسان في الجناس تهيئه همومه في الحب على البعد وأشجانه في القرب:

---

[62] – نفسه 1 / 181 اللغب : التعب – النضو : البعير المهزول
[63] – الشريف الرضي – الديوان 1 /179 القعب : القدح – الضريب : العسل – الصبر : عصارة شجر مُرّ

ياريمَ ذا الأجـــرعِ يرعى بـــه ثمـــارَ قلبـــي بـــدَل الرّطْـــبِ
هناكَ شـــربُ الدمع من نـــاظري يامُـــشْـــرِقي بالبـــاردِ العـــذبِ
أنت عـــلى البعـــد هُمـــومي إذا غِبْتَ وأشـــجَاني علـــى الـــقُربِ
لا أتبَعُ القـــلبَ إلى غيـــر كُـــمْ عيني لكُم عينٌ عـــلى قَلْـــبي[64]

تبدو براعة الشاعر في صياغة شعره جليه واضحة ، ففي البيت الأخير تتعانق ألوان الجناس الازدواجي والسجعي والتام والناقص مع التكرار والتقسيم ، وتتـــراءى لفظة العين في ثوب الخيال إذ تحولت إلى رقيب يحصي على الشاعر دقـــات قلبـــه ، ويرصد دوافع وجيبه ، فالعلاقة اللفظية في البيت منبع إشعاع لعلاقات معنويـــة تنقـــل حالة الشاعر الشعورية والذاتية بصدق ، وهاتات العلاقتان تبرزان في حلي موســـيقي يتلاقى فيه جرس الحروف المتكررة في توازن وانسجام وتناغم جميـــل مـــع الـــوزن والإيقاع .

إن متاع الشاعر أيام الحجيج باللقاء القصير كالبرق، وبالمواعيـــد الغامـــضة، وبالصبر وبالمدامع غداة سفر الأحباب، واللقاء في هذا النص كان مع ثلاث حسناوات لا واحدة:

ألا يا ليالي الخَيْف هل يرجـــعُ الهـــوى إليكنَّ لي ؟ لا جازكنَّ ندى القَـــطْرِ
فـــيا دينَ قلبي من ثلاثٍ على مِنـــى مضيْنَ ولم يُبْقـــين غيرَ جَوى الذّكرِ
ورامـــينَ وهنـــاً بالجِمـــار وإنـــما رمَوْا بين أحشاء المحبينَ بالجمـــرِ
رموا لا يـــبالون الحشـــى وتروحـــوا خلـــيين والرامي يصيب ولا يدري
وقالوا: غداً ميعادُنا الـــتَّنَفُر عـــن مِنـــى وما ســـرَّني أن اللقاءَ مع النّفـــرِ
ويـــا بؤسَ للقُرب الـــذي لا نذوقُـــه سوى ســـاعةٍ ثم البعادُ مدى الدهر
فيا صـــاحبي إن تُعْطَ صـــبراً فـــإنني نزعتُ يديَّ اليومَ من طاعةِ الصّـــبرِ

(64) – نفسه 1 /179 العين : الجاسوس

وإن كنتَ لم تــدر البُكا قـــبلَ هـــذه فميعادُ دمـــعِ العينِ مُنْقلب السَّفْرِ[65]

ويتذكر لقاء في أول الليل بذي النقا وكانت العشية باردة، فأوقدت الحبيبة النار للدفء بالعود الطيب الرائحة، فإذا خمدت النار بدا للشاعر ضـــوء حـــسن الحبيبـــة أزهى من ضوء النار كما بدا له تألق سوارها الذهبي، والـــشاعر يريـــد بالحبيـــب الحبيبة، وكثيراً ماكان الشعراء يستعملون لفظ المذكر وهو الحبيب بدلاً من التأنيث:

أيُّ عيدٍ من الهوى عـــادَ قلبـــي بعـــدَما جعجـــعَ الـــدّجى بالركـــبِ
لو دعاني مـــن غيـــر أرضِـــكَ داعٍ لغـــرامٍ لكنـــتُ غيـــرَ مُلبـــي
أين ظـــبيٌ بذي الـــنقا يُـــوقد الـــنا رَ عـــشاءً بالمنـــدليّ الرطـــبِ
كلما أُخمدت زهاها بـــضوءِ الـــ حُسن من جيدهِ وضـــوءِ القُلْـــب [66]

وهو إذا تغزل فغزله للفن لا لغاية أخرى، غايته النسيب فهو يقول:

ومالـيَ يالميـــاءُ بالـــشعر طائـــلٌ سوى أن أشعاري عليكِ نـــسيبُ [67]

وما أكثر الوعد الخلَّبَ على لسان الحسان:

وشَمَمْتُ في طَفَل العـــشيّةِ نفحـــةً حبسَتْ برامةَ صُـــحْبتي وركـــابي
متململـــينَ علـــى الرّحـــالِ كأنمـــا مَرّوا بـــبعضِ منـــازلِ الأحبـــابِ
ذكرَتْ لَي الأربَ القديمَ من الهـــوى عَهْدَ الـــصِّبا ولياليَ الأطـــرابِ
فبعثتُ دمعي ثم قُلْـــتُ لصاحبي: إيهِ دمـــــوعكَ يـــا أبـــا الغـــلابِ
في ساعةٍ لما التفـــتُّ إلـــى الـــصِّبا بَعُدتْ مســـــافتُه علـــى الطّـــلابِ

---

(65) – نفسه 1 / 511 تُعْط: هكذا وردت في الديوان، والصحيح ما أثبتناه.

(66) – الشريف الرضي – الديوان 1 / 178 جعجع: صوت، المندلي: عود طيب الرائحة حينما يوقد. القُلْب: وردت في الديوان القَلب والصحيح ما أثبتناه، نرى أن الشاعر يريد هنا السوار بضم القـــاف، فالسوار يمتص النور ويعكسه فيبدو متألقاً بديعاً. وقد حسب المحقق أن الشاعر يريد ضوء القلـــب أي الفؤاد.

(67) – نفسه 1 / 175

وتأرّجَتْ منهـا ذلاذلُ رَيْطـتي حتّى تعارفَ طـيبَها أصـحابي [68]

ولا نكاد نقف عن الاستشهاد بالحجازيات دون أن نورد هذه القطعة التي تجمع بين المتناقضين وهي الأمواه والنيران في مدامع المحب وأحشائه، وفيها من متاع الإيقاع وحنان القافية وزينها مافيها:

يا روضَ ذي الأثْلِ من شرقيّ كاظمةٍ قد عاودَ القلبَ من ذكراكَ أديانا
أمُرّ بالركبِ مجتازاً بذي سلَم لَوْما شريتُكَ بالأوطانِ أوطانا
شغلْتَ عيني دُموعاً والحشَى حُرَقا فكيفَ ألّفْتَ أمواها ونيرانا
أشُم منكَ نسيماً لستُ أعرفُهُ أظُنّ ظمياءَ جرّتْ فيكَ أردانا
ألقاكَ والقلبُ صافٍ من رجيع هوىً وأنثني عنكَ بالأشواقِ نشوانا
يقولُ صحبي وقد أعياهمُ طربَي بعضَ الأسىَ إنما أحببْتَ إنسانا[69]

لم تتجل الذاتية في ميادين الغزل وحدها، بل وجدناها تبرز في ميادين الفخر والمديح عند المتنبي، وهذا ما نلمحه عند الشريف الرضي، ففي شعره كله نلمح ذاته الطامحة إلى المعالي والمجد:

وإنّي شقيقُ الوغى النّدى رضيعُ لبانِ المعالي الجسامِ[70]

ينظر الشاعر من حوله فلا يجد بين رجال عصره من يساويه محتداً وشرفاً وعلماً، وهو لذلك لا يجد فيمن يعايشهم من يرتقي إلى مستواه، ومن يحق له أن ينازعه حقاً موروثاً وعرشاً مطلوباً:

أما أنا موزونٌ بكل خليفةٍ أرى أَنَفا من أن يكون خليفَتي

ولذلك أوطن نفسه الذروة في خياله وشعره، وترك الآخرين في مراتب

---

[68] – نفسه 1 / 177في الديوان زلازل، والصحيح بالذال جمع ذلاذل وهي أسافل القميص، أو الريطة، وقيل: هي أثواب تلبس فوق بعضها، كل واحد منها أقصر مما تحته لتظهر كلها للناظرين، وقد غاب اللفظ عن المحقق– طفل العشي : قبل غروب الشمس

[69] – نفسه 2 / 474، الطرب: الحزن، الأسى: التعزية.

[70] – نفسه 2 / 371

دونها، كانت مطامحه العظيمة مرتبطة في تحققها ببلوغ الشاعر ذروته علـــى أرض الواقع ، وكانت حقاً مغتصباً لابد من إعادته، وكيف يتوقف دون ذلك وهو الـــشريف الذي ينبغي أن يسير على طريق أجداده ممن آثروا الفعل الحقيقي على أرض الواقـــع فكانوا شهداءه:

يُخيفونني بالموتِ والمـــوتُ راحةٌ لمن بين غربي قلبه مثـــلُ همّتـــي
تريدونَ أن نُوطى وأنتُمْ أعـــزّةٌ بـــأيّ كتـــابٍ أمْ بأيّـــة سُـــنّةِ
فإن كـــنـــتمُ منا فقدْ طال ميـــلُكم قديماً على عيدانِ تلـــكَ الأرومـــــةِ
ولا صُلحَ حتى تسمعوا من أزيزِهـــا صواعقَ إما صكّتِ الأذن صُكّتِ [71]

وتسري دماء الذائية في شرايين شعره كله، فلا نستطيع أن نفصل شعره عن ذاته حتى في ميادين المديح يقول:

عطفاً أميرَ المـــؤمنين فإنّـــــنا في دوحـــةِ العـــلياءِ لانتفـــرقُ
مـــابينَنَا يومَ الفـــخارِ تـــفـــاوتٌ أبداً كلانا فـــي المعـــالي مُعـــرقُ
إلا الخلافـــةَ مـــيّزتك فإنـــني أنا عاطلٌ منها وأنـــتَ مُطَـــوّقُ [72]

وهو إذ يمدح الطائع لله يفتتح قصيدته بضمير المتكلم:

أنا للركائبِ إن عرضْتُ بمنـــزلٍ وإذا القَنُوع أطاعَني لـــم أرحـــلِ [73]

وكأنه يؤكد أن ذاته هي المحور الأساسي الذي يدور من حولها شعره، لـــذلك نـــراه ينسى من حوله ويفرد المطلع للحديث عن نفسه في مديح الخليفة:

مَـــسيري إلـــى ليـــلِ الـــشبابِ ضـــلالُ وشَيْبي ضياءٌ في الـــوَرى وجَمَـــالُ
ســـــوادٌ ولكـــنَّ البـــياضَ ســـيادةٌ وليـــلٌ ولكـــنّ النهـــارَ جـــلالُ

---

[71] – الشريف الرضي– الديوان 1 / 209 . الأزيز : الصوت – صكت الأذن : ضـــربتها ضـــرباً شديداً – غَرْبي : جانبي صُكت الثانية على المجهول : أغلقت ولعلها صمت أي ذهب سمعها .
[72] – نفسه 2 / 42.
[73] – نفسه 2 /114.

أنا المرءُ لاعِرضـــي قريـــبٌ من العـــدى ولا فيّ للباغي عليَّ مقالُ [74]

وتغلب هذه الذات في ساحات المديح حيث ينبغي أن تتـــوارى ذات الـــشاعر، فيخاطب الخليفة الطائع لله قائلاً:

لي مِثلُ ملكِكَ لـــو أطعـــتُ تقنّعـــي وذوو العمـــائم مـــن ذوي التيجـــان

ولعلّ حالي أن يصيرَ إلـــى عُلـــىً فالدوحُ منبتُهـــا مـــن القـــضبان[75]

وإن كانت ذاته المتعالية تأبى أن تتوارى أو تنـــزل من عليائها فهو يؤكـــد أن من كانت همته بلوغ الذروة لا يمكن أن يكون مدحه تنازلاً عنها، وإنما هـــو ســـبيل يقوده إليها:

وإني إذا ما بلّغَ اللُه مُنيتي ضمنْتُ له هجرَ القريضِ وحوبِه[76]

إن الشعر وسيلة لغاية أسمى وأرفع ، فالخلافة مطلب تنحني أمامه هامة الشعر مهما علت ، والشاعر الذي يتسامى بنفسه ويراها أحق بالخلافة يؤكد أنه سيهجر القريض إذا تحققت له أمانية السياسية ، ولاعجب في أن يغلق الشاعر أبواب الذات السامية ، ويدور في إطارها ليستمد منها الشعر والجمال ، ويسعد بالحب والأمل في زمن اختلت فيه الموازين ، وانهارت الأخلاق والقيم وفسدت أحوال المجتمع ، وهانت كرامة الإنسان .

نموذج الهروب:

يتضح نموذج الهروب والانطلاق من إسار الواقع أكثر ما يتضح في العصور المضطربة، وقد رأينا أن الحياة السياسية والاجتماعية في بغداد كانت لا تطاق حيث عمت الفتن والثورات، وفقد الأمن والغذاء،وأسهمت عوامل الطبيعة مع الإنسان فـــي إشاعة الدمار والخراب، وقد عانى من الفوضى والفساد والاضطراب فئات الـــشعب

---

[74] – نفسه 2 / 124.
[75] – نفسه 2 /521.
[76] – نفسه 1 / 135 – الحوب : الإثم

كله كما رأينا من قبل ، والشاعر لا يستطيع أن يغفل واقعه ومعاناة النـــاس القاســية فيقول:

وخطبٍ على الزوراءَ ألقى جرانــهُ مديدِ النّواحي مُد لهّــم الجوانــبِ
وأضرمَها حمراءَ ينْــزو شــرارُها إلى جنباتِ الجو نَــزْوَ الجنــادبِ[77]

في هذه البلاد التي سدت فيها أبواب الرزق، وهان الإنسان وتوالت الخطوب، وهدمت طرق العلى والمجد لا مكان للشاعر، وعليه أن يرحل إلى بلد بعيــد عــن الحساد وأذاهم على الرغم من تعلقة الشديد ببلده ، وعدم رغبته في مغادرته، وأمله في تحقيق أمانيه على أرضه:

مــاليَ لاأرغــبُ عــن بلــدةٍ ترغــبُ فــي كثــرةِ حُــسـادي
مــا الــرزقُ بــالكَرْخ مقــيمٌ ولا طوقُ العُلــى فــي جيــدِ بغــداد[78]

وقد هيأت له مهامه الرسمية لوناً من هذا الهروب، حققه في رحــلات الحــج إلى ديار أجداده الجميلة الفاتنة بعيداً عن بغداد وعواصفها، ففي رحلاته هذه كان يبتعد عن موطن الحساد إلى حين ، ويخيل إليه أنه عاد إلى أرض الأجداد التي تحقــق لــه ماعجز عن تحقيقه في بغداد ، فيرى ما لا يراه صاحبه ، ويحس أن العيد عيد الغرام ولقاء الأحبة وعيد تحقيق الأماني :

أقول وقــد عــاد عيــد الغــرام لــما هبــطن بنــا الأجــفرا
أيــا صــاحبي أتــرى نــارهم ؟ فقــالَ تُرينــي مــالا أرى
دعــاني الغــرامُ ولــم يدعــه فأبــصرْتُ مــالم يكــن مُبْــصِرا
فمــا زلــتُ أطربــهُ بالحنــين وأذكــرهُ المنــزلَ المــقفرا
إلــى أن تنفــسّ عــن زفــرةٍ وأنَّ مــن الوجــدِ مــستعبِرا[79]

---

[77] – الشريف الرضي – الديوان 1 / 91 – الزوراء : بغداد _ ألقى جرانه : ثبت واستقر
[78] – نفسه 1 / 295
[79] – نفسه 1 / 516 الأجفر : موضع

إن الشاعر في طريقه إلى المدينة ، وها هو يحط رحاله في أجفر فرحاً مستبشراً لأنه اقترب من ديار الأحبة وقد لاحت نيرانهم لعينيه في الخيال ، فأحس أن الغرام يدعوه إلى عيد جديد ملؤه الحب والسعادة مع أحبته الذين فارقهم مدة من الزمن، ولكن أيام الحج لاتدوم ، وسعادة الشاعر ستنتهي ، وسيعود إلى بغداد التي عانى فيها من قبل مرارة الفراق وقسوة الحياة وكيد الحساد ، فهو في أمس الحاجة إلى الهروب من معاناته .

وحين كان يستقر في بغداد ولا يشارك الحجيج سعادتهم وجمال لياليهم ، إنه يراهم وقد تأهبوا للمسير فيشتد في نفسه الحنين إلى ديار الأحبة ، وتملؤه رغبة عارمة في مشاركتهم رحلتهم ، ولكن مهامه وظروف حياته تمنعه فتضيق به جنبات بغداد، وتفارقه راحة البال، فيخرج إلى ظاهرها مودعاً ركب الحجيج محملاً إياهم حاجات قلبه المعذب من حنين وشوق:

أيهُا الرائحُ المُغذّ تحمّلْ حاجةً للمعذّبِ لمشتاقِ
أَقْرِ عنّي السلامَ أهلَ المُصلّى وبلاغُ السلامِ بعدَ التلاقي
وإذا ما مررْتَ بالخَيْف فاشهَدْ أنّ قلبي إليه بالأشواق
ضاعَ قلبي فانشدْهُ لي بينَ جَمْعٍ ومِنىً عندَ بعضِ تلكَ الحِداق[80]

يودع الشاعر موكب الحج، ويعود إلى بغداد لمتابعة أعماله ومهامه الرسميه فيها، لكن قلبه الهائم بالحسناوات، المشوق لتلك الديار يبقى في حالة ترقب ولهفة منتظراً عودته، وسرعان مايهب للقاء الركب العائد من الديار المقدسة ليسأله عن حبيبته ويستعيد أيامه الخوالي وذكريات هواه، ويستمتع بلقاءات الحب في حلم يقظة جميل:

عارِضا بي ركبَ الحجاز أسائلْه: متى عهدُه بسكانِ سَلْعِ
واستملا حديثَ من سكنَ الخيـ ـفَ ولا تكتُباه إلا بدمعي

[80] – نفسه 2 / 79

فـــاتتي أن أَرى الـــديارَ بطَرْفـــي فلعلّـــي أرى الـــديارَ بـــسمعي [81]

وقد أبدع الشاعر في تصوير الحـــسان فـــي لوحـــات تتطـــق بالـــشاعرية والجمال،وتتصدر قصيدته الكافية ديوان الشعر العربي في ميـــادين الحـــب والفـــن والجمال يقول فيها:

ياظبيةَ البانِ ترعى فـــي خمائلِـــهِ ليهنكِ اليـــومَ أنّ القلـــبَ مرعـــاكِ
المـــاءُ عنـــدَكِ مبـــذولٌ لـــشاربهِ وليسَ يُرْويـــك إلا مَـــدْمعي البـــاكي
هبّتْ لنا من رياحِ الغَـــوْرِ رائحـــةٌ بعـــدَ الرّقـــادِ عرفناهـــا بريـــاكِ
ثـــم انثنينـــا إذا ماهزّنـــا طـــربٌ علـــى الرّحـــالِ تعلّلنـــا بـــذكراك
سهمٌ أصابَ وراميهِ بـــذي سَـــلمٍ من بالعراقِ لقد أبعدتِ مرمـــاك[82]

استطاعت ظبية جميلة ذاقت حلاوة الحياة وطيب العيش في خمائل الـــصحراء أن تخطف من الشاعر قلبه وتسكنه ، وما قنعت بغير الدموع شراباً سائغاً ، وماسمحت للمسافات أن تبعدها عنه ، فها هي رياها العطرة تعبق بها نسمات الغور ، فتنتعش في الشاعر أحلام السعادة الماضية ، وتثير في نفسه ذكريات حب لا ينـــسى ، فيتخيلهـــا أمامه وقد رمته بسهام عشق لاتعترف بالمسافات ولا تخطىء الهدف . حـــين يهـــرب الشاعر من واقعه يحقق أحلامه في إطار تجربة واقعية حين يمارس مهامه في أسفار الحج ، أو تجربة متخيلة في وداع الحجيج ولقائهم ، وإن لم يسعفه الحظ في ذلك خلا بنفسه وعاش أحلام يقظته مع حبيبته في ذكريات عشق لاتنسى ، ولعل حرارة البـــوح وصدق العاطفة وعذوبة الموسيقى والتحليق في سماء الإبداع أوهم بعض الدارســـين فربط القول بالفعل ، يقول عبد اللطيف شرارة: " إن الغانيات همه الأول.. إن المرأة جملة وتفصيلاً تحرك في قلبه أوتاراً قل أن تحركها في غيـــره [83]، لكـــن الـــشاعر

[81] – الشريف الرضي – الديوان 657/1
[82] – نفسه 107/2
[83] – الشريف الرضي ص52.

العاشق للمجد، الساعي إلى حقه في الخلافة لاتشغله النساء عن هدفه ولا تقعده عن ارتقاء سلم المجد، وما غزله إلا سبيل إلى العلى، وتفوق في ميادين الأدب:

لغيرِ العُلى مني القِلى والتجنّبُ ولولا العُلى ما كنتُ في الحبّ أرغبُ[84]

فهو يؤكد أن غايته نيل العلى والمجد ، المجد في بيت الخلافة إن استطاع أن يحقق هذا الهدف الأسمى ، وفي بيت النقابة إن حرمته الأيام من الوصول إلى سدة الحكم واستعادة مجد جده الأكبر . أما الحب فليس غاية ترجى عنده ، وشعر الغزل ما هو إلا سبيل إلى التفرد والتفوق على الآخرين ، فالمرأة لم تكن يوماً غاية يسعى إليها الشريف، والعشق لم يكن مما يشغل باله:

عشقْتُ ومالِي يعلمُ اللُه حاجةٌ سوى نَظَري والعاشقونَ ضُروبُ

ومالِي يا لمياءُ بالشعرِ طائلٌ سوى أن أشعاري عليك نسيبُ[85]

إن العاشقين ضروب ، وعشق الشاعر ضرب لم يألفه الناس الذين عرفوا ألواناً شتى من العشق والحب والهيام في ميادين الحياة الاجتماعية ، واستمعوا إلى معزوفاته الجميلة في أحضان الشعر الغزلي . عشقه غريب عن عصره الذي عرف بعض غزله فساد الطبيعة والتهالك على الملذات ، فالرضي عدل عن نهج الشعراء في زمانه لأنه ليس عاشقاً في حقيقة أمره وليس به حاجة إلى الحبيبة والعاشقة ، فهو يكتفي بالنظر الذي يسعفه في تدبيج أشعار الغزل الجميل وقد أعلن الشاعر أن مطلبه لم يكن حظوة بين أحضان الغواني:

أنْحلني فيها طِلابُ العُلى وذاك فَخْري عند أندادي

أينَ الغواني من طِلابي وما أطلبُ إلا الرائح الغادي[86]

---

(84) – الشريف الرضي الديوان 1 /107.

(85) – نفسه 1 /175.

(86) – الشريف الرضي الديوان 1 /295 وفيها : أي في بغداد.

لقد عرفنا طموحه ورغبته في المعالي التي طوقت عنقه مذ كان فتى ، وحددت مسار حياته حين أصبح شاباً ، وأقامت الحواجز التي منعته من مشاركة الشعراء عشقهم ومجونهم ، ولكن نفسه المرهفة تسبيها لمحات الجمال البدوية وإذ يسترق النظر إلى الحجازيات والنجديات الفاتنات يملك عليه الجمال مشاعره المرهفة ، فيعزف ألحان الحب في شعر عذب سبا الأفئدة وخلده على مر العصور . لم يكن الغزل تعبيراً عن واقع الشاعر ،ولكنه هروب من زمنه، وتعويض عن معاناته من جانب، واقتصاد في القول بعيداً عن الفعل من جانب آخر، وبكاء الحياة المرة والزمن الأسود:

وليسَ نسيبي أنّ في القلبِ لوعةً ولكنّني أبكي زماني وأندبُ [87]

فما كان لمثله أن يتغزل بالنساء ويسعى في إثرهن محباً عاشقاً، ولم تستطع المرأة أن تتخطى الحواجز إلى مكامن اللوعة في قلبه، فقد آمن منذ طفولته أنه خلق لما هو أهم في نظره وأسمى، إنها الخلافة ولاشيء سواها وهكذا تتشابك هذه النماذج في حياة الشريف وشعره معاً، وقد تتعانق في القصيدة الواحدة فتبدو لناظرها كألوان الطيف في قوس قزح الذي يبشر بقدوم الخير.

الخاتمة:

إن الشاعر الشريف الرضي كان شهاباً محرقاً رجيماً في الغارات والحربيات، ونياً عذباً رخيماً مونقاً في الحجازيات والغزليات، فالحربيات الخيالية ما هي إلا ثورة يدفع بها الظلم عن نفسه، ويعيد الحق إلى نصابه، وإن كان في خياله، فيجد نفسه الخليفة المنتظر لأنه أحق بهذه المكانه كما يؤمن في أعماق نفسه، فهو في الذروة شرفاً ومحتداً وفي أعلى المراتب علماً وأخلاقاً، ولايبلغ شأوه أدباً ومعرفة، وما الشعر إلا ذاته المتوقده حساً والمتفجرة غضباً، والساعية إلى بلوغ المنى وتحقيق العدالة، فإذا كانت الذاتية تلتقي مع الاقتصاد في بعض هذه القصائد فإن الذاتية تلتقي مع الهروب

[87] – نفسه 1 /80 .

من الواقع الأليم في حجازياته، فهو يهرب من واقعه المملوء بالمتناقضات، ويكشف الغطاء عن الدوافع والغايات التي أساءت إلى الأفراد والجماعات، يهرب منها لينفرد بنفسه ويعيش لحظات السعادة مع أحلامه وأحبته الذين فارقهم في ديار أجداده تلك الديار التي تمنحه الإحساس بالأمان والحب، وتغذي فيه أحلامه الضائعة بالمجد والفخار .

كان فنه للفن، وكان محسناً فيه كل الإحسان ومحباً فيه للكمال والإتقان. بل كان مدرسة شعريه ولغوية تخرج فيها من تخرج بعده من الشعراء الذين أولعوا بالشعر النقي والفن الرصين البهي، وأبرزهم مهيار الديلمي. ولا يزال ديوانه معيناً ثراً للمتأدبين ولعشاق الشعر العربي الراقي وللباحثين عن نوادر الألفاظ القريبة والبعيدة، ولكنها في تعلم اللغة العربية وتعليمها مفيدة أية مفيدة، زيادة على حسن النظم وبلاغة القول وعذوبة الإيقاع وقوة العاطفة.

المصادر والمرجع

- ابن الأثير – الكامل في التاريخ – المطبعة المنيرية 1353هـ
- أدونيس – مقدمة للشعر العربي – دار العودة – بيروت ط 3
- الأصفهاني – أبو الفرج – الأغاني – ط دار الكتب المصرية
- امرؤ القيس – الديوان – تحقيق أبو الفضل ابراهيم ط 2
- أمين – أحمد – ظهر الإسلام – القاهرة 1945م
- ابن تغري بردي – النجوم الزاهرة – دار الكتب المصرية
- الجاحظ – البيان والتبيين – تحقيق عبد السلام هارون – بيروت
- ابن الجوزي – المنتظم – حيدر أباد – 1357هـ
- الحطيئة – الديوان – تحقيق نعمان أمين طه – مطبعة البابي الحلبي 1958م.
- ابن الرومي – الديوان– دار صادر –بيروت 1962م.
- شرارة – عبد اللطيف –الشريف الرضي –الشركة العالمية للكتاب –ط بيروت 1993م.
- الشريف الرضي – الديوان – مطبعة وزارة الإرشاد الإسلامي – ط إيران – 1406هـ.
- ضيف – د. شوقي – العصر الإسلامي – دار المعارف بمصر
- العاملي –بهاء الدين–الكشكول –تحقيق الطاهر أحمد الزاوي –دار إحياء الكتب العربية.
- العاملي – محسن الأمين – أعيان الشيعة – دار التعارف بيروت 1983م.
- العشماوي – د. محمد زكي – موقف الشعر من الفن والحياة – دار النهضة العربية – بيروت 1981م.
- أبو العلاء المعري – شروح ديوان سقط الزند – دار الكتب المصرية 1945م.
- عمر بن أبي ربيعة – الديوان – تحقيق فوزي عطوي – دار صعب بيروت .
- عنترة بن شداد – الديوان – تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي – المكتبة التجارية القاهرة .
- اليافي – د. عبد الكريم –الوجه الآخر للفنان –مجلة التراث العربي –اتحاد الكتاب العرب بدمشق العدد 31– نيسان 1988م.

تاريخ ورود البحث إلى مجلة جامعة دمشق 2001/8/16.